مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (34) العدد (1)2012
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (34) No. (1) 2013

ريادة المهلهل بين الشّكّ واليقين

الدكتور عدنان محمّد أحمد*

(تاريخ الإيداع 5 / 1 / 2012. قبل للنشر في 4 / 3 / 2012)

□ ملخّص □

تركت مقولة ابن سلاّم: "المهلهل أوّل من قصّد القصائد" صدىً واسعاً في مؤلّفات من جاء بعده، وقُبلت بوصفها حكماً نقدياً دقيقاً لا مسوّغ لإقامة الدّليل عليه. و ربّما مهّدت للاقتناع بآراء القائلين باشتقاق لقب "المهلهل" من "الهلهلة" التي تعنى ضعفاً في صياغة الشّعر؛ إذ من المألوف أن تفتقر صناعة "الأوّل" إلى الإحكام الذي يُلاحظ في صناعة من يأتي بعده، ويستفيد من تجاربه.

ولكنّ الباحث يفترض أنّ الصّورة النّاضجة لمراثي المهلهل، تتمّ على إفادته من تجارب أسلافه، وعلى جريه في ميدان مهّدوه له. وهذا البحث محاولة لاختبار هذا الفرض، والوقوف على حقيقة الدّور الرّيادي المنسوب إلى الشّاعر.

الكلمات المفتاحية: المهلهل، قصائد، الأوّل، الرّيادة.

* أستاذ – قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (34) العدد (1)2012
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (34) No. (1) 2013

Muhalhal's Pioneering Between Skepticism and Certitude

Dr. Adnan Muhammad Ahmad*

(Received 5 / 1 / 2012. Accepted 4 / 3 / 2012)

□ ABSTRACT □

Bin Sallam's statement "Muhalhal is the first to compose poems" has met a widespread fame in the publications of those authors coming after him, and has been accepted as a precise critical judgment that attracts no excuse to handle it sharply. It has probably paved the way to accept the vantage point of those who suggest that the title "Muhalhal" is derived from "al-halhalah" which means weakness in poetry composing; since it is quite known that the craft of the "First" necessitates the coherence that appears in the craft of those followers, and benefits from his expertise. However, the researcher presumes that the ripe image of Muhalhal's elegies explains his reliance on his predecessors' expertise, and, as well, his contribution to a field they have established. This piece of research is an attempt to test this presumption, and scrutinize the reality of the pioneering role attributed to this poet.

Keywords: Muhalhal, Poems, First, Eminence

*Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, University of Tishreen, Lattakia, Syria.

مقدمــة:

يفترض هذا البحث أنّ الصورة الناضجة لمراثي المهلهل– كما نقلتها إلينا كتب التراث العربي– تتمّ على إفادة المهلهل من تجارب أسلافه، وعلى جريه في ميدان مهّدوه له، وهذا ما يجعل مقولة ابن سلام: إنّ "المهلهل أوّل من قصّد القصائد" موضع نظر، كما يجعل الدور الريادي، الذي يمنحه بعض الدارسين لهذا الشاعر، موضع شكّ كبير؛ ولذلك فإنّ الباحث سيحاول الإجابة عن سؤال: هل كان المهلهل –فعلاً– أول من قصّد القصائد؟ وهو سؤال يرتبط بسؤال آخر عن العلاقة بين لقب الشاعر وتجربته الشعرية؛ إذ إنّ ثمة آراء –قديمة ومعاصرة– ترجع اللقب إلى أسباب تتعلق بإبداع الشاعر.

أهميّة البحث وأهدافه:

ترجع أهمية هذا البحث إلى كونه يسعى إلى:

أ– تصحيح حكم نقدي غير دقيق، قد تُبنى عليه أحكام أخرى تتعلق بأولية شعرنا العربي القديم.

ب– الكشف عن خطأ الأقوال التي ترجع لقب الشاعر إلى أسباب تتعلق بقدرته الفنيّة.

ج– إثارة أسئلة تتعلق بحركة الشعر العربي قبل المهلهل.

منهجية البحث:

لأن اختبار الفرض الذي بنيت عليه الدراسة يحتاج إلى جمع الآراء النقدية القديمة المتعلقة بالشاعر، ومقارنة بعضها ببعض، وقراءتها في ضوء الأدلة العقلية و النقلية، رأى الباحث أن المنهج الوصفي هو المنهج الذي يحقق الغاية المرجوّة.

– لمحة عن الشاعر:

ثمة خلاف حول اسم المهلهل؛ فقد قيل إنه عدي بن ربيعة[1]، وقيل: بل هو امرؤ القيس[2]. ولكن ما لا خلاف فيه أنه من أشهر الشخصيات العربية القديمة التي عاشت زمناً محدوداً في التاريخ، ولكنها ما تزال تعيش إلى اليوم في الذاكرة الشعبية. فَمَنْ مِن العرب لم يسمع بالزير أبي ليلى المهلهل؟!، ذاك الذي أضرم حرب البسوس التي استمرت

---

[1] – ديوان النقائض(لأبي عبيدة، معمر بن المثنى،. دار صادر بيروت، ط1، 1998): 272/2، وطبقات فحول الشعراء(لابن سلام الجمحي. قرأه وشرحه محمود محمد شاكر. مطبعة المدني، القاهرة، 1974): 39/1. والشعر والشعراء(لابن قتيبة. تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر. دار المعارف، مصر، 1982): 297/1، والتعازي والمراثي(لأبي العباس المبرد. تحقيق محمد الديباجي. دار صادر، بيروت، ط2، 1992): 290، والعقد الفريد(لابن عبد ربه. حققه وشرحه محمد ألتونجي.. دار صادر، بيروت، 2006): 193/5، والتذكرة الحمدونية(لابن حمدون. تحقيق إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ط1، 1996): 371/4، وأمالي القالي(لأبي علي القالي. دار الكتاب العربي، بيروت، بلا تاريخ): 129/2، والأوائل(لأبي هلال العسكري. تحقيق محمد سيد الوكيل. دار البشير، بيروت، ط1، 1987): 435، ولسان العرب(لابن منظور. دار صادر، بيروت، بلا تاريخ): "هلل"، ونهاية الأرب في فنون الأدب(للنويري. تحقيق مفيد قميحة وآخرين. دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004): 305/15، وخزانة الأدب(لعبد القادر البغدادي. قدم له نبيل طاريفي. دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988): 152/2. وقال أبو الفرج: "قال أبو عبيدة: اسمه عدي، وقال يعقوب بن السكيت اسمه امرؤ القيس" الأغاني(لأبي الفرج الأصفهاني. شرحه وكتب هوامشه عبد الأعلى علي مهنا ورفيقه. دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1992): 61/5. وذكر الآمدي أن اسمه امرؤ القيس وقال: "ويقال عديّ" المؤتلف والمختلف(للآمدي. تحقيق عبد الستار أحمد فراج. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1961): 8، وفي العمدة في محاسن الشعر وآدابه(لابن رشيق. تحقيق محمد قرقزان. دار المعرفة، بيروت، ط1، 1988): "واسمه عدي، وقيل: امرؤ القيس" 189/1.

[2] – انظر مثلاً: المراثي(لليزيدي. حققه محمد نبيل طريفي، منشورات وزارة الثقافة بدمشق، ط1، 1991): 242، ومعجم الشعراء(للمرزباني. تحقيق فاروق إسليم. دار صادر، بيروت، ط1، 2005): 109، وسمط اللآلي في شرح أمالي القالي(للبكري. تحقيق وشرح محمد نبيل طريفي. دار صادر، بيروت، ط1، 2008): 114/1، وتاج العروس في جواهر القاموس(للزبيدي. دراسة وتحقيق على شيري. دار الفكر، بيروت، 1994): "هلل".

أربعين سنة، بعد أن قتل جسّاس بن مرة أخاه وائل بن ربيعة المعروف بكليب[3]!. ولكن شهرة الشاعر لا تعني أنّ حياته واضحة، بل يمكن القول إنّ محورية شخصية المهلهل في أحداث حرب البسوس، التي تحوّلت إلى ضرب من القصص الشعبي، تجعل حياته أكثر غموضاً ممّا نتوقع!.

والمهلهل هو ابن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جُشَم بن بَكر بن حُبَيب بن عمرو بن غَنْم بن تغلب[4]. وهو خال الشاعر امرئ القيس بن حجر الكندي، وجدّ الشاعر عمرِو بنِ كلثوم؛ أبو أمه، وهي ليلى التي يكنى بها، والتي قيل لعمرو بن هند إنها الوحيدة التي تأنف من خدمة أُمّه، عندما سأل ندماءه: هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمّه من خدمة أمي؟ فقالوا: عمرو بن كلثوم. فأبوها المهلهل، وعمّها كليب وائل أعزّ العرب، وبعلها كلثوم بن مالك بن عتاب أفرس العرب، وابنها عمرو بن كلثوم سيد من هو منه. وكانت القصة المشهورة التي قُتل فيها عمرُو بنُ كلثوم عمرَو بنَ هند، ثم قال قصيدته المشهورة المعدودة من المعلقات[5]. أما وصفه بـ"الزير" فقد أطلقه عليه أخوه كليب –كما يُروى– لما رأى ميله الشديد إلى مجالسة النساء والتحدث إليهن[6].

ويُعدّ المهلهل من أقدم الشعراء الجاهليين الذين وصلت إلينا أشعار صحيحة النسبة إليهم، ولكنه قد يكون أقدم شاعر حفظت المصادر له هذا القدر من شعر الرثاء. وهو رثاء قاله في أخيه وائل المشهور بـ "كليب". وهذا القدم الزمني لتجربة المهلهل الشعرية، دفع إلى الاعتقاد بحيازته قصب السبق في كثير مما يتعلق بالمرثية الشعرية. حتى إنّ أحد الباحثين يذهب إلى أنّ المهلهل "أوّل من طوّل القصيدة الرثائية..."[7]، و "أول من ربط موضوع الرثاء بأشعار الحماسة..."[8]، و"كان الرائد الأول في إثبات مقدمة غزلية لمرثية من تسعة أبيات..."[9]، وأنه "...في كلّ المقاييس يعدّ رائد القصيدة الطويلة، ومن ثم رائد القصيدة المسبوقة بالمقدمة الطللية..."[10]...وهذه الأحكام وأشباهها[11]، تعني أنّ المهلهل صاحب ريادة في حركة الشعر العربي لا يصحّ إغفالها، أو تجاهلها، وأنّه صاحب الفضل الأول في رسم أهم ملامح قصيدة الرثاء العربية، أيضاً.

– الشاعر وتقصيد القصائد:

يذكر ابن سلام أنّ المهلهل أول من قصّد القصائد، ولكنه مع ذلك يشير إلى أنّ الهلهلة تعني الضعف، وإلى أنّ لقب الشاعر جاءه من هلهلة شعره، فيقول: "وكان أول من قصّد القصائد وذكر الوقائع، المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب وائل، قتلته بنو شيبان، وكان اسم المهلهل عدياً..."[12]. ولكن ابن سلام لا يضع بين أيدينا ما يدعم قوله إنّ المهلهل أول من قصّد القصائد، ولا يخبرنا بأنّ الشعراء الذين ذكرهم قبل المهلهل–في كتابه– كانوا لا يقولون إلاّ أبياتاً متفرقة.

---

(3)– انظر القصة في التعازي والمراثي: 292 وما بعدها، وفي الأغاني: 39/5 وما بعدها.

(4)– الأغاني: 61/5، وانظر جمهرة أنساب العرب(لابن حزم.. دار المعارف، مصر، ط3، 1971): 304.

(5)–انظر القصة في ديوان النقائض: 259/2 ومابعدها، والشعر والشعراء:234/1، 235. والأغاني:56/11، وخزانة الأدب: 146/2–153.

(6)– انظر والتعازي والمراثي: 290، وأمالي القالي: 24/1.

(7)– د. حسين جمعة في كتابه: قصيدة الرثاء جذور وأطوار(دار النمير ودار معد، ط1، 1998): 69.

(8)– السابق: 146.

(9)– السابق: 303 .

(10)– السابق: 72.

(11)– وانظر أحكاماً أخرى مشابهة في المصدر نفسه: 194، 242، 251، 254.

(12)– طبقات فحول الشعراء: 39/1.

وكانت قولة ابن سلام–إذا كان هو القائل فعلاً– أمام ناظري ابن قتيبة، بلا ريب، ولكنه لم يؤيدها، ولم يدحضها، ولم ينسبها إلى قائل معيّن، بل اكتفى بالقول: "ويقال: إنه أوّل من قصّد القصائد"[13]، واستشهد بعجز بيت للفرزدق يقول فيه: "ومُهَلْهِلُ الشُّعراءِ ذاكَ الأَوَّلُ" من دون أن يعلّق عليه. وحذا أبو الفرج حذوه في كتاب الأغاني فقال: "ويقال: إنّه أوّل من قصّد القصائد"[14]، من غير أن ينسب القول إلى ابن سلام، أو غير ابن سلام!. أما أبو هلال العسكري فلا يقول: "ويقال" بل يقرر بيقين أنّ المهلهل أوّل من قصّد القصائد مستدلاً بقول الفرزدق السابق[15]، ولكنّه، كأسلافه، لا يأتي على ذكر ابن سلام، أو غير ابن سلام!. وكذلك يفعل ابن رشيق صاحب كتاب العمدة[16]، والقلقشندي صاحب كتاب صبح الأعشى[17]. أمّا المرزباني فينسب القول إلى ابن سلام، من غير تعليق، ويقول: "حدثني إبراهيم بن شهاب، قال: حدثنا الفضل بن الحباب، عن محمد بن سلام، قال: أول من قصّد القصائد، وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة..."[18]. في حين يقول صاحب كتاب المثل السائر: "والذي نقلته الأخبار، وتواردت عليه، أنّ العرب كانت تنظم المقاطيع من الأبيات فيما يعنُّ لها من الحاجات، ولم يزل الحال على هذه الصورة إلى عهد امرئ القيس، وهو قبل الإسلام بمئة سنة، زائدا فناقصا، فقصّد القصائد، وهو أوّل من قصد..."[19]، وهو يريد امرأ القيس الشاعر صاحب المعلقة.

ولذلك كلّه يحقّ لنا أن نتساءل: أليس من الممكن أن تكون قولة ابن سلام "نقلاً" لرأي كان معروفاً في عصره، غيَّر النّسّاخ صورته إلى إقرار؟ وإلاّ، فكيف نفسر تجاهل ابن قتيبة، وأبي الفرج، وأبي هلال العسكري، وغيرهم، ردّ القول إلى صاحبه؟! أليس من الممكن أن يكون قول الفرزدق–وكانت النقائض تستأثر باهتمام الناس– قد ترك في أذهان الناس تصوّراً بأنّ المهلهل أولّ من قصّد القصائد، أو قوّى–على الأقلّ– مثل هذا التصوّر، فنقله ابن سلام في سياق حديثه عن الشاعر؟.

ثم كيف يمكن الاطمئنان إلى أنّ المهلهل أوّل من قصّد القصائد، وما يزال الغموض يلفّع بدايات الشعر العربي، وتجارب الشعراء التي سبقت مرحلة نضجه؟ إنّ النصوص الشعرية التي بين أيدينا–حتى الآن– ترجع إلى زمن كان الشعر فيه– من حيث كونه فنّاً لغوياً– قد تجاوز مراحل التجريب الأولى وغداً فنّاً له أُسسه وقوانينه الخاصّة! وليس ثمة دليل يمكن الوثوق به في تحديد صاحب أوّل محاولة شعرية تجاوزت التجريب إلى النضج، أو في تحديد أولّ من أبدع قصيدة.

أما مقولة الجاحظ المشهورة "...وإذا استظهرنا الشعرَ، وجدنا له–إلى أن جاء الله بالإسلام– خمسين ومئة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام"[20]، فلا تصحّ إلاّ إذا فهمنا أنه يعني الشعر الذي وصل إليه ناضجاً من زمن ما قبل الإسلام. والجاحظ–على أيّة حال– لم يكن يبحث في أوليّة الشعر العربي، بل كان يقرر الزمن الذي يمكن الوثوق بنسبة الشعر إليه؛ لأنّ ثمة أشعاراً تنسب إلى أزمنة مغرقة في القدم يصل بعضها إلى زمن آدم نفسه!. كما أنّ قوله: "وأما الشعر فحديث

([13])– الشعر والشعراء: 297/2.

([14])– الأغاني: 61/5.

([15]) – الأوائل: 435.

([16])– العمدة: 191/1.

([17])– صبح الأعشى في صناعة الإنشا(للقلقشندي. دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922): 293/1. ولكنه يجزم في موضع آخر بأنه أول من قصد القصائد، انظر: 433/1.

([18])– الموشح(للمرزباني.تحقيق علي محمد البجاوي. دار نهضة مصر، بلا تاريخ): 89.

([19])– المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر(لابن الأثير. قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي وبدوي طبانة. دار نهضة مصر، القاهرة، بلا تاريخ): 219/3.

([20])– الحيوان(للجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط2، 1357هـ): 74/1.

الميلاد، صغير السنّ، أول من نهج سبيله، وسهّل الطريق إليه: امرؤ القيس بن حُجْر، ومُهَلْهِل بن ربيعة"[21] فمن الواضح أنّه يعني به القصيدة، وليس الشعر بشكل عام؛ يعني القصيدة التي وصلت إلينا ناضجة، مكتملة، موثوق في نسبتها إلى من نسبت إليه. ومن غير الممكن أن يكون الجاحظ على جهل بمن كان قبل امرئ القيس والمهلهل من الشعراء. كما يمكن أن نلاحظ أنه لم يقل إنّ هذين الشاعرين أول من "قال" الشعر أو "قصّد" القصيدة، بل قال إنهما أول من "نهج" و"سهّل الطريق". وهذا يعني أنه كان ثمة "منهج" نهجه الشاعران، و"طريق" سهّلاه.

– لقب الشاعر وعلاقته بشعره:

كان قِدَم الشاعر سبباً في تصوّر أوليته، غير أنّ ثمة سبباً آخر أسهم في هذا التصوّر؛ وهو لقب "المهلهل" الذي لُقِّب به، أو لنقل هو معنى هذا اللقب؛ فـ"المهلهل" اسم مشتق من المصدر "هلهلة"، ولكن لأنّ المهلهل شاعر كان ثمة اجتهاد في إيجاد علاقة بين الموهبة، أو القدرة الفنية، ومعنى المصدر، لتكون تلك العلاقة متكأ في تفسير سبب اللقب، وفي الحكم على شعر الشاعر، أيضاً.

يقول ابن سلام: "...وكان اسم المهلهل عدياً، وإنما سُمي مهلهلاً لِهَلْهَلَةِ شعره كهلهلة الثوب، وهو اضطرابُه واختلافُه"[22]. وقد يكون الاضطراب سمة عامة من سمات بدايات الأشياء؛ ولذلك فهو يؤيّد ما ذهب إليه ابن سلام من أنّ المهلهل أول من قصّد القصائد. غير أنّ معاصراً لابن سلام؛ هو ابن الأعرابي، لم يرَ في هلهلة الشعر دلالة على الاضطراب والاختلاف؛ إذ قال: "المهلهل مأخوذ من الهَلْهَلَة، وهي رقّة نسج الثوب، والمهلهِل المرقِّق للشّعر، وإنما سُمّي مهلهلاً لأنّه أول من رقّق الشعر، وتجنّب الكلام الغريب الوحشي"[23]. وهو قول يشير إلى وجود شعر كان قبل المهلهل؛ شعر لم يكن مرقّقاً، وكان فيه قدر من الغريب الوحشي. ولكن ابن الأعرابي لم يقدم شاهداً من ذلك الشعر، يتيح إجراء مقارنة، بين شعر المهلهل ومن سبقه، تكشف بشكل واضح عن صنيع المهلهل. والقدماء الذين آمنوا بقولة ابن الأعرابي حذوا حذوه في ذلك، فلم يقدّموا نصوصاً شعرية قديمة، ولم يوضّحوا ما المقصود بـ"الغريب الوحشي" ! فهل كان غريباً وحشياً بالنسبة إلى زمن قوله، أم بالنسبة إلى زمن ابن الأعرابي؟!.

ما تضمنته هذه المقولة من إشارة إلى وجود شعر قبل المهلهل، يعزّز قيمتها النقدية، ولكن قول ابن الأعرابي إنّ الشاعر "تجنّب الكلام الغريب الوحشي " قد يوحي– لدى قراء اليوم، على الأقل– بأنّ "الترقيق" المشار إليه يقوم في مقابل "الإغراب" في الألفاظ، أو في الألفاظ والتراكيب معاً، وهذا يعني أنه ينتقل به من كونه عيباً ينمّ على ضعف في الصناعة، إلى كونه مزية حازها الشاعر بعد دربة واجتهاد، وهي مزية جعلها الجاحظ مما يعوَّل عليه في الشعر عندما قال: "وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج..."[24]. ولكن إذا كان لقب الشاعر مأخوذاً من الهلهلة التي تعني "رقّة نسج الثوب" فلا يمكن فهمه إلاّ بوصفه تعبيراً عن ضعف في الصياغة، كما تشير كتب اللغة ومعاجمها ؛ قال صاحب تهذيب اللغة: "ويقال هَلْهل فلان شعره إذا لم يُنَقِّحه وأرسله كما حضره ولذلك سمى الشاعرُ مهلهلا"[25] وجاء في اللسان: "ثوب هَلٌ وهَلْهَلٌ وهَلْهالٌ وهُلاهِل ومُهَلْهَل رقيق سَخيفُ النَّسْج. وقد هَلْهَل النَّسَّاج الثوبَ: إذا أَرقّ نَسْجه وخفَّفه. والهَلْهَلةُ: سُخْفُ النسْج. وقال ابن الأَعرابي: هَلْهَله بالنَّسْج خاصة. وثوب هَلْهَل رَديء النسْج، وفيه من اللغات جميع ما تقدم في الرقيق. قال النابغة:

([21])– السابق والصفحة نفسها.

([22])– طبقات فحول الشعراء: 39/1.

([23])– الموشح: 89. وفي العقد الفريد:" وإنما قيل له: المهلهل، لأنه أول من هلهل الشعر أي أرقه" 193/5.

([24])– الحيوان: 3/ 131.

([25])– تهذيب اللغة (لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري. تحقيق عبد الله درويش ومحمد علي النجار. الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1964) : 372/5.

أَتاك بقولٍ هَلْهَلِ النَّسْجِ كاذبٍ ولم يأْتِ بالحقّ الذي هو ناصِعُ

ويروى لَهْلَه..."[26].

الهَلْهَلةُ، إذن، سُخْفُ النسْج، ورداءته. وبهذا المعنى قيل: "... هَلْهَل فلان شعْره إذا لم ينَقِّحه وأَرسله كما حضَره ولذلك سُمّي الشاعر مُهَلهِلاً..."[27]. الهلهلة في هذا السياق تعني –كما هو واضح– إرسال الشعر على السجية من غير تنقيح أو إعادة نظر؛ بمعنى آخر، من غير اهتمام بالجانب الفني. وهذا يعني أنّ الهلهلة نقيض "الصناعة" التي أشار إليها الجاحظ عندما عرّف الشعر بقوله: "فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير"[28]، أو لنقل: إنّ الهلهلة تعني "الرداءة"، وهو ما أشار إليه صاحب اللسان صراحة بقوله: "وشعر هَلْهل رقيقٌ. ومُهَلْهِل: اسم شاعر، سُمي بذلك لِرَداءة شعْره. وقيل: لأَنه أَوَّل من أَرقَّ الشعْر، وهو امرؤ القيس بن ربيعة"[29].

ويروي ابن دريد، في كتابه "الاشتقاق" قولين للأصمعي؛ يقول في أحدهما إنّ المهلهل "إنما سمي مهلهلاً لاضطراب شعره"([30])، ويقول في الآخر "إنه سُمّي مُهلهلاً لأنه كان يُهلهل الشّعر، أي يرقّقه ولا يُحكِمه"[31]. ونرجّح أن يكون القول الثاني تفسيراً من ابن دريد لقول الأصمعي الأول، وشرحاً له، فيكون هو من رأى أنّ "الاضطراب" يعني عدم الإحكام، وليس الأصمعي؛ ولاسيما أنه كان يتحدث عن اشتقاق اسم "مهلهل"، فذهب إلى أنه من قولهم ثوب هلهال، إذا كان رقيقاً[32]. وحجّتنا في هذا الترجيح، أيضاً، أنّ المرزباني ذكر للأصمعي رأياً آخر يستحق التأمل، ولكنه مع ذلك لم يحظ باهتمام من جاء بعده! وهو في هذا الرأي لا يردّ الرداءة التي لاحظها في شعر المهلهل إلى ضعف يتعلق بالشاعر، بل إلى ما حُمِل عليه من شعر لا يرتقي إلى مستوى شعره؛ فقد قال:"... وأكثر شعره محمول عليه"[33].

وحمْلُ شعر على شاعر كان بطل حرب ضاقت بالتاريخ، فخرجت إلى رحاب السِّير الشعبية، أمر مقبول إلى حدّ لا يحتاج فيه إلى دليل، ولاسيما أنّ الشعر يسهم إسهاماً كبيراً في البناء القصصي للسيرة؛ إذ يصل ما انقطع من الأحداث، ويسترجع ما غاب، ويعبّر عن بطولة الشاعر، وعن حزنه؛ ولذلك فإنّ قولة الأصمعي ينبغي أن تظل ماثلة أمام أعيننا ونحن نقرأ شعر المهلهل محاولين بناء أحكام نقدية دقيقة، أو قريبة من الدّقة. ليس لأنها تشكّك في نسبة كثير من شعر المهلهل إليه فحسب، بل لأنها تحمل إقراراً بـ "الضعف الفني" الذي قد نلاحظه في شعره، أيضاً، وإن كانت ترجع هذا الضعف إلى غير موهبة الشاعر.

ولكن إذا صدّقنا أنّ المهلهل لُقِّبَ بلقبه هذا "لِرَداءة شعْره" –كما جاء في اللسان– وصدّقنا ما قاله الأصمعي "وأكثر شعره محمول عليه"، فلا بدّ من أن نردّ هذا الضعف، أو معظمه–على الأقل– إلى الشعر المحمول عليه. وعندئذ لا مناص من مواجهة افتراض مؤداه أنّ الشاعر لم يكن معروفاً بلقبه هذا مدّة حياته، بل أُطلق عليه في مرحلة

([26])– اللسان "هلل"

([27])– اللسان: "هلل"

([28])– الحيوان: 132/3.

([29])– اللسان: "هلل" وفيه: "قوله وهو امرؤ القيس بن ربيعة هكذا في الأصل والمشهور أنه أبو ليلى عَدِيّ بن ربيعة..."

([30])– الاشتقاق(لابن دريد. تحقيق وشرح عبد السلام هارون. دار الجيل، بيروت، ط1، 1991): 61.

([31])– السابق: 338.

([32])– السابق والصفحة نفسها.

([33])– الموشح:90.

متأخرة، تمكّن فيها "المزيّفون" من حمل أشعار رديئة عليه، مع ضمان قبول نسبتها إليه من قبل المتلقين؛ لأن من غير المعقول أن تضاف إليه، خلال حياته، أشعار رديئة، فتكون سبباً في تلقيبه بالمهلهل!.

وفي مواجهة افتراض كهذا، لا مناص من الرجوع إلى المصادر الأدبية التي تحدّثت عن الشاعر. وكثير من تلك المصادر يسرد بعضاً من أحداث حرب البسوس، ومنها أحداث تتضمن حواراً بين الشاعر وغيره. وقد يأمل الباحث في أن يكون الحوار معيناً في الكشف عما كان الشاعر معروفاً به بين أبناء زمانه، غير أنه يرجع بالخيبة؛ إذ يجد الشاعر مُخَاطباً بلقبه مرّة، وباسمه أخرى!. فمثلاً جاء في الشعر والشعراء: "...أسر الحارث بن عُباد[34] مهلهلاً وهو لا يعرفه، فقال له الحارث: تدلّني على عديّ بن ربيعة المهلهل وأنت آمن؟ فقال له المهلهل: إنْ دللتك على عديّ فأنا آمن ولي دمي؟ قال الحارث نعم. قال: فأنا عديّ..."[35]. أما صاحب الأغاني فيروي الرواية نفسها فيبدو فيها لقب الشاعر أكثر وضوحاً؛ يقول: "فأَسرَ الحارثُ بن عباد عدياً، وهو مهلهل، بعد انهزام الناس، وهو لا يعرفه، فقال له: دلّني على المهلهل. قال: ولي دمي؟ قال: ولك دمك. قال: ولي ذمتك وذمة أبيك؟ قال: نعم، ذلك لك، قال: فأنا مهلهل"[36].

وأنا أعرف أنّ مثل هذه الرواية لا تقوم دليلاً قاطعاً على أنّ الشاعر كان معروفاً بلقبه، فقد لا نعدم مصادر ترويها فلا تذكر اللقب[37]. ومثل هذا الاختلاف أمر طبيعي؛ أولاً لأنّ التدوين كان في زمن متأخر، وبعد أن دخل الروايات الشفهية –النثرية بشكل خاص– ما دخلها من جراء ما يؤثر في الذاكرة، أو لنقل في الذاكرة والراوي، معاً. وثانياً لأنّ الذين تحدّثوا عن المهلهل لم يكونوا مشغولين بتحديد الزمن الذي عُرِف فيه الشاعر بلقبه، وربما كانوا مطمئنين إلى أنه عُرِف به خلال حياته.

ولكن لماذا ينبغي إرجاع لقب الشاعر إلى رداءة شعره، أو اضطرابه؟ يمكن التسليم باضطراب بيت، أو أبيات، في شعر شاعر. ويمكن التسليم بوجود اضطراب في قصيدة، أو حتى في قصيدتين، لشاعر. أما أن يكون شعر الشاعر مضطرباً إلى حدّ تلقيبه بلقب مأخوذ من هذا الاضطراب، فهذا ما لا يمكن التسليم به؛ لأنّ هذا "الشاعر" لن يكون حينئذٍ شاعراً أصلاً!. وقد تنبّه إلى ذلك صاحب كتاب جمهرة اللغة فقال: "وقال قوم: سمّي المهلهِلُ الشاعر لأنه كان يهلهِل الشعرَ، أي: لا يحكمه، وهذا خلاف الصواب لأنّ مهلهلاً أحد شعراء العرب. قال ابن الكلبي: سمّي مهلهلاً ببيت قاله:

لما توقّلَ في الكُراع هجينُهم هَلْهَلْتُ أثأرُ مالكاً أو صِنْبِلا

والهَلهلة: التوقف عن الشيء، والرجوع عنه. هَلَلَ عن الشيء وهَلْهَلَ بمعنى "[38].

وقال صاحب تهذيب اللغة: "وسمِّي مهلهل مهلهلاً بقوله لزهير بن جناب: لما توغّلَ في الكُراع هجينُهم...(البيت)"[39].

([34])– هو الحارث بن عُباد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عُكابة(جمهرة أنساب العرب: 320). معدود من أوفياء العرب(انظر المحبر لابن حبيب. منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، بلا تاريخ: 348). كان حكيماً شاعراً، انتهت إليه إمرة بني ضبيعة وهو شاب، اعتزل حرب البسوس حتى قتل المهلهل ولده، فثار ونادي بالحرب(انظر الأعلام، للزركلي. دار العلم للملايين، بيروت، ط9، 1990): 2/156)

([35])– الشعر والشعراء:1/298.

([36])– انظر مثلاً: الأغاني: 5/54، وأمالي القالي: 3/26، وجمهرة الأمثال(لأبي هلال العسكري. ضبطه وكتب هوامشه أحمد عبد السلام. دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988): 1/110.

([37])– انظر مثلاً العقد الفريد: 5/200، وخزانة الأدب: 2/152.

([38])– جمهرة اللغة: 1/223. والبيت في ديوان المهلهل: 67.

([39]) – تهذيب اللغة: 5/372.

كذلك جاء في الأمالي: "...وقرأت على أبي بكر بن دريد، وأملى علينا أبو الحسن الأخفش قال: مهلهل بن ربيعة–ومهلهل لقب– وإنما سمي مهلهلاً بقوله: لما توعّر في....البيت"[40].

وما قاله ابن الكلبي، وأبو الحسن الأخفش، مقنع؛ إذ كان من الشائع أن يُلقَّب الشاعر بلقب مأخوذ من بيت قاله، والشواهد على ذلك أكثر من أن تُحصى، وأشهر من أن تُطلب. كما أنّ بين أيدينا شاهداً لا يدحض على شاعرية المهلهل؛ وهو افتخار الفرزدق بانتمائه إليه في عبقريته الشعرية بقوله[41]:

وَهَبَ القَصَائِدَ لي النَّوابِغُ، إذْ مَضَوا ... وأَبو يَزيدَ، وذو القُروحِ، وجَرْوَلُ[42]

والفَحْلُ عَلْقَمَةُ الّذي كانتْ لهُ ... حُلَلُ المُلوكِ كلامُهُ لا يُنْحَلُ[43]

وأَخو بَني قَيسٍ، وهُنَّ قَتَلْنَهُ، ... ومُهَلْهِلُ الشُّعراءِ ذاكَ الأَوَّلُ[44]

فلولا أنّ الفرزدق يشهد بجودة شعر المهلهل، ويعلم أنّ جريراً–فضلاً عن المتلقين– يشهد بها أيضاً، لما ذكر المهلهل. وحسبنا ذلك دليلاً على أنّ المهلهل كان جيّد الشعر، ولم يكن مضطربه. ولذلك كلّه نتفق مع أحد الباحثين بعزوفه عن التفسير الذي يذهب إلى أنّ اللقب مشتق من الهلهلة التي تعني الاضطراب والاختلاف، ولكننا نختلف مع هذا الباحث بميله إلى أنّ "...سبب تلقيبه بالمهلهل لأنه هلهل الشعر، أي سلسل بناءه، وطوّله، ورققه"[45]، ولاسيّما أنّ آراء كثيرين، ممن يُعتدّ بآرائهم من القدماء[46]، تُرجِع السبب في التلقيب إلى البيت الذي يقول الشاعر فيه: "هلهلت أثأرُ... البيت".

وهذا لا ينفي وجود رداءة في شعر المهلهل الذي بين أيدينا، ولا مناص من الإقرار بأنّ شعراً كثيراً حُمل على المهلهل–كما قال الأصمعي– وهو إقرار تدعمه عظمة كليب، وشدة أوار حرب البسوس، وانشغال الناس بها زمناً طويلاً. وذلك كله يدفع إلى اختلاط "التاريخي" بـ"القصصي" ويجعل أخيلة الرواة، أو القصّاصين، متّقدة، ويغريهم بإضافة ما يجعل أحاديثهم أكثر إثارة، ومن أهم ما يمكن أن يضيفوه الشعر.

ولكن هل يمكن أنّ نردّ كلّ ما يمكن أن نراه من ضعف في شعر المهلهل إلى الوضّاعين؟ ألا يمكن القول إنّ شخصية المهلهل "غير المتروّية"–كما تبدو بوضوح من خلال أشعاره وسيرته– والأثر العظيم الذي خلّفه مقتل أخيه في نفسه، وأجواء الحرب التي عاشها، أسباب اجتمعت لدفع الشاعر إلى قول الشعر من غير إعادة النظر فيه، وإلى الاهتمام بالتعبير المباشر عمّا يشعر به، من غير انشغال بالجانب الفني؟.

([40])– أمالي القالي: 129/2. وانظر أيضاً المراثي لليزيدي: 242، والاشتقاق: 61. ويذهب المعري في حوار دار بينه وبين المهلهل، في رسالة الغفران إلى أنّ اللقب مأخوذ من البيت، ولكنه يجعل البيت لأخ كان للمهلهل اسمه امرؤ القيس، واللقب له، ولكن المهلهل الشاعر لُقّب به تشبيهاً له بأخيه بعد موت هذا الأخير. انظر رسالة الغفران(تحقيق بنت الشاطئ. دار مصر الجديدة، ط6، 1977): 353، 354. وانظر تاج العروس: "هلل".

([41])– ديوان النقائض: 176/1. والأبيات في ديوان الفرزدق(تحقيق علي خريس.مؤسسة الأعلمي، بيروت،ط1، 1996): 435.

([42])– النوابغ: أراد الذبياني والجعدي والشيباني. وأبو يزيد: المُخبَّل السعدي. وذو القروح: امرؤ القيس بن حجر. وجرول: الحطيئة.

([43])– علقمة: هو علقمة بن عبدة، الشاعر الجاهلي المعروف بعلقمة الفحل. كلامه لا ينحل: أي لا ينتحله أحد، وقيل: أي لا يبلى.

([44])– أخو بني قيس: طرفة بن العبد. هنّ قتلنه: أي القوافي.

([45])– قصيدة الرثاء: 62.

([46])– الاشتقاق: 61، والمؤتلف والمختلف: 8، وانظر سمط اللآلي في شرح أمالي القالي: 1/ 114. وفي اللسان: "...وقيل سمّي مهلهِلاً بقوله لزهير بن جَناب:

لمّا تَوَعَّرَ في الكُراعِ هَجِينُهُمْ ... هَلْهَلْتُ أَثْأَرُ جابراً أَو صِنْبِلا

لا شك في أنّ ذلك كلّه ترك أثره في شعر المهلهل الذي انشغل بالتهديد والوعيد، والحديث عن فجيعته، ورثاء أخيه. ولكن لا شكّ–أيضاً– في أنّه قال من الشعر الجيّد ما ينفي احتمال تلقيبه بالمهلهل بسبب اضطراب شعره!. ويبدو أنّ أبا عبيدة الذي يردّ الهلهلة إلى الشاعر نفسه، كان يدرك أنّ المقصود بها غير الاضطراب؛ إذ قال: إنّ الشاعر سمي مهلهلاً "...لأنّه هلهل الشعر؛ يعني سلسل بناءه، كما يقال ثوب مُهَلْهَل إذا كان خفيفاً"[47]. والسلسلة قد تعني العذوبة، فيقال ماء سلسل أي سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه[48]، ولكنها تعني الضعف أيضاً، إذ يقال: "وثوب مُسَلْسَلٌ ومُتَسَلْسِلٌ رديء النَّسْج رَقِيقه"[49]. ولكن لأنّ الهلهلة تعني رقّة نسج الثوب –كما مرّ معنا من قبل– فلا مناص من اختيار المعنى الثاني في فهم معنى "سلسل بناءه". لكنّ ثمة معنى آخر للسَّلْسَلَةِ وهو اتصال الشيء بالشيء، ولعلّ هذا المعنى كان متكأ في تفسير قولة أبي عبيدة: "يعني سلسل بناءه" بكونه ربط بعض أجزائه ببعض، أو بمعنى آخر: ربط الموضوعات بعضها ببعض لتشكّل قصيدة. ولعل هذا ما دفع أحد الباحثين –في معرض تفسيره لقب الشاعر– إلى القول: "لأنّه هلهل الشّعر، أي سلسل بناءه وطوّله ورققه"[50] فلفظة "طوّله" استنتاج من الباحث! ولم تُذكر في أحاديث المتحدثين عن معنى الهلهلة، وهو استنتاج دفعه إلى القول إنّ المهلهل أوّل من طوّل قصيدة الرثاء، وإنّه رائد القصيدة الطويلة، كما ذكرنا من قبل.

ويروي أبو الفرج قولاً يفسّر "الرّقة" تفسيراً آخر، فيقول: "...وإنّما لقّب مهلهلاً لطيب شعره ورقّته، وقيل: إنّه أوّل من قصّد القصائد وقال الغزل، فقيل: قد هلهل الشعر، أي: أرقّه"[51]. وفي هذا القول منقبة أخرى للمهلهل –غير تقصيده القصائد– هي أنّه أول من قال الغزل. وأبو الفرج يرجع الرقّة إلى "طيب" الشعر، أي إلى ما يتركه رثاؤه في النفس من أثر. ولكنّه يذكر رأياً آخر يرجع الرقة إلى الغزل وحده. ولا أظنّ هذا الرأي إلاّ محاولة لتفسير معنى "الترقيق" الذي تردّد في أقوال من سبق أبا الفرج من العلماء الذين ذكروا أنّ المهلهل أوّل من رقّق الشعر. ولأنّ شعر الغزل موصوف بالرّقة، حَدَث خَلْطٌ بين معنى الرقّة التي تعني الرداءة، والرقّة التي تعني السلاسة والعذوبة. ويروي أبو علي القالي قولاً يتفق مع ما قاله أبو الفرج؛ إذ يرجع "الرّقة" إلى الرثاء: "...إنما سمي مهلهلاً لأنه أول من أرقّ المراثي، واسمه عديّ..."[52]. ورثاء الشاعر رقيق حقاً، وهو أكثر شعره، ولكنه لم يسمّ مهلهلاً لأنه أول من أرقّ المراثي، كما أنه لم يسمّ كذلك لأنه أول من قال الغزل، بل لأنه قال: ".... هلهلت أثأرُ مالكاً أو صنْبِلا".

ولكن أين "الغزل" الذي ورد ذكره في ما رواه أبو الفرج؟ فليس في شعر المهلهل من الغزل ما يستحق الذكر! بل أجرؤ على القول: ليس في شعره –الذي بين أيدينا– غزل، إذا أردنا الدقّة، بل ثمة ذكر لامرأة –هي قريبته ابنة المحلّل، أو المجلّل– في مقدمة قصيدة له قالها وهو بعيد عن قومه[53].

– البحث عن الأوّل:

والاطمئنان إلى حكم بشأن "أوّل" من قال الغزل، أو "أوّل" من أرقّ الرثاء، أو "أوّل" من قصّد القصائد، لا يقلّ صعوبة عن الاطمئنان إلى حكم بشأن "أوّل" من قال بيتاً من الشعر. وكيف لا يكون ذلك وليس بين أيدينا–ولم يكن

([47])– ديوان النقائض: 272/2.

([48])– انظر اللسان: "سلسل".

([49])– السابق: "سلسل"

([50])– قصيدة الرثاء: 62.

([51])– الأغاني: 61/5.

([52])– أمالي القالي: 129/2.

([53])– انظر ديوانه(شرح وتحقيق أنطوان محسن القوال. دار صادر، بيروت،ط1، 1995): 59.

بين أيدي نقادنا القدماء– من النصوص الشعرية الدالّة على بداية نشأة الشعر العربي، ونموّه وتطوره إلى القصيدة، ما يهيئ لإصدار حكم كهذا، وكيف لا يكون ذلك–أيضاً– بعد إقرار نقادنا القدماء بأنّه ما انتهى إلينا "ممّا قالته العرب إلاّ أقلّه..."[54]! وإذا كان ما انتهى إلينا هو "الأقل" هل يحقّ لنا أن نطلق حكماً يستغرق "الأكثر" الذي ضاع؟! ثم إنّ هذا "الأقل" نفسه فيه ما فيه من الزيادات، وممّا هو بغير نسبة، أو ممّا حول نسبته إلى قائله أسئلة تنتظر أجوبتها.

أما ما روي على لسان ابن سلام من أنّ المهلهل أوّل من قصّد القصائد –وذكره كثيرون ممّن جاؤوا بعده– فلا يمكن قبوله إلاّ بفهمه على نحو آخر ينأى به عن كونه حكماً بأول من انتقل بالشعر العربي من الأبيات– أو المقطعات– إلى القصيدة. فلقد كان ابن سلام أدقّ من أن يطلق حكماً بهذه الخطورة من غير دليل قاطع بين يديه، ولاسيما أنه لم يُرِد لكتابه أن يكون تأريخاً للشعر والشعراء؛ إذ اقتصر فيه "على ما لا يجهله عالم، ولا يستغني عن علمه ناظر في أمر العرب"[55]، واقتصر"من الفحول المشهورين على أربعين شاعراً"[56]. كما أنه يروي لزُهَير بن جَنَاب الكَلبيّ[57]– وهو معاصر لكليب وائل– قصيدة من أحد عشر بيتاً يشكو فيها كبر سنّه وتغيّر زمانه[58]. فإذا صحّت نسبة القول السابق إليه فالمرجّح أنه يريد به الإشارة إلى أنّ المهلهل "أقدم" شاعر وصلت إلينا قصائد صحيحة النسبة إليه.

ثم إنّ بين أيدينا من الروايات ما يشير إلى وجود قصيدة لشاعر آخر معاصر للمهلهل؛ هو الحارث ابن عُباد. فقد ذكر ابن فارس أنّ من سُنن العرب التكرير والإعادة، إرادةَ الإبلاغ بحسب العناية بالأمر، واستشهد بقول الحارث بن عُباد:

قَرِّبا مرْبِط النَّعامةِ مِنّي لَقِحَتْ حَرْبُ وائِلٍ عن حِيالِ[59]

وقال: "فكرَّرَ قوله: قَرِبا مربِط النّعامة منّي، في رؤوس أبيات كثيرة..."[60]. وقوله "أبيات كثيرة" في سياق حديثه عن التكرار يعني أبياتاً تكوّن قصيدة، على الأقل.

كذلك استشهد صاحب كتاب الصناعتين –في سياق حديثه عن أنّ الإطناب في موضعه مستحسن– بقول الحارث "قَرِّبا مرْبِط النَّعامةِ مِنّي" وقال: "كرّرها أكثر من ذلك، هذا لما كانت الحاجة إلى تكريرها ماسّة، والضرورة إليه

([54])– طبقات فحول الشعراء: 25/1.

([55])– السابق: 4/1.

([56])– السابق: 24/1.

([57])– هو زهير بن جناب بن هُبَل بن عبد الله بن كنانة بن بكر بن عوف بن عُذرة بن زيد اللات بن رُفَيدة بن ثور بن كلب بن وَبْرَة بن تغلب بن حُلوان بن عِمران بن الحاف بن قضاعة، شاعر جاهلي، وهو أحد المعمرين، وكان سيّد كلب وقائدهم في حروبهم(انظر نسبه وأخباره في الأغاني: 19/19 وما بعدها، وانظر:جمهرة أشعار العرب: 456).

([58])– انظر طبقات فحول الشعراء: 36/1، 37. وكان أبو حاتم السجستاني قد ذكر أربعة أبيات من القصيدة ثم قال: "ويقال أولها كما أخبرنا أبو زيد الأنصاري عن المفضل..." وذكر الأبيات التي ذكرها ابن سلام(وفيها بعض الاختلاف في الألفاظ)، وهكذا يكون مجموع ما ذكره أبو حاتم من القصيدة خمسة عشر بيتاً(انظر المعمرون والوصايا. تحقيق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1961،1. ص :32،33). وذكر له أبو الفرج في أغانيه قصيدة من أربعة عشر بيتاً(20/19، 21) وذكر له مطلع قصيدة، ثم روى منها عشرة أبيات(23/19، 24). وانظر شعر زهير بن جناب في ديوان شعراء كليب ابن وبرة، وقد أثبت المحقق فيه ثلاث قصائد للشاعر، إحداها بلغت أحد عشر بيتاً، والثانية أربعة عشر بيتاً، والثالثة ثلاثة وعشرين بيتاً. انظر ديوان شعراء كليب بن وبرة (صنعة الدكتور محمد شفيق البيطار، دار صادر، بيروت. ط1، 2002) الصفحات: 31 وما بعدها، و 34، وما بعدها، و 46 وما بعدها.

([59])– النعامة: فرس الحارث. لقحت: حملت. الحيال: أن يضرب الفحل الناقة فلا تحمل. وجاء في خزانة الأدب(450/1): "وهذا مثل ضربه؛ لأن الناقة إذا حالت وضربها الفحل كان أسرع للقاحها. وإنما يعظم أمر الحرب لما تولد منها من الأمور التي لم تكن تحتسب".

([60])– الصاحبي في فقه اللغة: 213، وكرر السيوطي في المزهر ما قاله ابن فارس بالحرف، انظر المزهر: 332/1.

داعية لعِظَم الخَطْب..."[61]. واستشهد المرتضى في أماليه بقول الحارث وقال: "ثم كرّر قوله قَرِّبا مرْبِط النَّعامةِ مِنّي في أبيات كثيرة من القصيدة..."[62]. وقول صاحب كتاب الصناعتين: "أكثر من ذلك" –في سياق حديثه– يعني مرات كثيرة، وكذلك قول المرتضى. وقد نشكّ في أن تكون هذه المرّات قد بلغت الخمسين، وفي أن تكون القصيدة قد بلغت مئة بيت، كما في بعض الروايات[63]، ولكن ما لا نشكّ فيه هو أنّ ما قاله الحارث كان قصيدة. ولا يهمّنا التحقّق من عدد أبياتها، هاهنا، فحسبنا أنّها قصيدة، وأنّه لا يمكن الاطمئنان إلى أنّ المهلهل أول من قصّد القصائد.

ثم إنّ قصيدة المهلهل التي يكرّر فيها قوله: "قَرِّبا مَرْبِطَ المُشَهَّر منّي...." أربع عشرة مرّة –وقد بلغت في ديوانه الذي بين أيدينا خمسة وأربعين بيتاً[64]– كانت نقيضة لقصيدة الحارث التي يكرّر فيها قوله: "قَرِّبا مَرْبِطَ النّعامة منّي..."، ولا يعقل أن يكون المهلهل قد اهتمّ هذا الاهتمام بنقض ما قاله الحارث، لو كان ما قاله مجرد أبيات قليلة. والمرجح أنه نهج في نقيضته نهج صاحبه لينقض ما قاله، فكرّر القول "قَرِّبا مَرْبِطَ..." كما كرّره الحارث "في رؤوس أبيات كثيرة"[65]، على حدّ تعبير ابن فارس.

ويروي المبرد في كتابه التعازي والمراثي قصيدة من ستّة عشر بيتاً قالتها ماويّة بنت مرّة[66] امرأة كليب، تشتكي ما بها من قتل أخيها وزوجها، وقال: "وهي قصيدة محيطة بالمعنى المقصود، جيدة الكلام بوفرة التشكّي"[67]، وهذا يعني أنها ليست نتاج التجربة الأولى لهذه الشاعرة. ما يعني، بدوره، أنّ قول عدد من الأبيات يبلغ حدّ القصيدة كان أمراً مألوفاً في عهد المهلهل.

في ضوء ما سبق كلّه، تبدو الجرأة التي يبديها بعض الباحثين، في إطلاق أحكامهم، مثيرة للدهشة. وأكتفي بذكر ما ذهب إليه أحدهم من أنّ "المهلهل يعدّ في كل المقاييس رائد القصيدة الطويلة، ومن ثم رائد القصيدة المسبوقة بالمقدمة الطللية، وإن دلّت المقدمات عنده على أنها تقليد فني وحياتي مبدع...فما وصل إلينا حتى الآن يجعله صاحب الريادة في هذا المقام، دون أن ننكر ما روي لزهير بن جناب وابن أخيه امرئ القيس"[68].

فالباحث يقرّر، بيقين غريب، أنّ المهلهل يعدّ "في **كل** المقاييس**!**" رائد القصيدة الطويلة، ولكنه لا يعرّفنا بتلك المقاييس، ولا يذكر مقياساً واحداً منها. ويقول: "ومن ثم رائد القصيدة المسبوقة بالمقدمة الطللية". وقوله "ومن ثم" يوحي بأنّ المقدمة الطللية لازمة من لوازم القصيدة الطويلة، حتى إنه لا يصحّ الحكم بطول القصيدة ما لم تكن مسبوقة

([61])– الصناعتين(لأبي هلال العسكري. تحقيق محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية، بيروت، 1988): 194.

([62])– أمالي المرتضى(تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1954): 126/1.

([63])– انظر نهاية الأرب: 308/15، وانظر معجم الأعلام: 156/2. وثمة ثلاثة أبيات من القصيدة في الأصمعيات: 71(وانظر تعليق محقق الأصمعيات في حاشية ص: 66) وستة أبيات في الحماسة البصرية:58 وانظر أيضاً تعليق المحقق في حاشية الصفحة ذاتها).

([64])– انظر ديوانه: 70–75.

([65])– ويروي صاحب كتاب أخبار المراقسة سبعة وثلاثين بيتاً من قصيدة الحارث: 259، 260، 261، يكرر فيها قول: "قَرِّبا مَرْبَطَ النّعامة منّي..." أربع عشرة مرّة!، والمؤلف يشير في الحاشية إلى أنّ التوليد ظاهر في بعض الأبيات، وإن كان لا ينفي نسبة بعضها الآخر إلى الحارث. ولكنه يروي له قصيدة أخرى من سبعة عشر بيتاً: 262، 263، من غير أن يشكك في نسبتها إليه، كما أنه يروي قصائد لكليب ولغيره من أبناء عصره (انظر شرح ديوان امرئ القيس ومعه أخبار المراقسة، للسندوسي. المكتبة الثقافية، بيروت، ط7، 1982. ص 238 وما بعدها) وهو يفعل ذلك كلّه من غير أن يشير إلى مصادره!.

([66])– أشار محقق الكتاب في الحاشية إلى أن الأبيات تنسب في كل المراجع التي رجع إليها إلى جليلة بنت مرّة أخت جساس وزوجة كليب(انظر حاشية ص 291).

([67])– التعازي والمراثي: 291، 292

([68])– قصيدة الرثاء: 72.

بمقدمة طللية. ولا بدّ من أن نتساءل: كيف يكون المهلهل صاحب الريادة "دون أن ننكر ما روي لزهير بن جناب وابن أخيه امرئ القيس"؟! ففي عدم إنكار ما روي لهما من قصائد إثبات بسبقهما–أو بسبق زهير على الأقل– للمهلهل، ما يعني نفياً لريادته. ثم إذا كانت المقدّمات عند المهلهل تدلّ، كما يقول الباحث "على أنّها تقليد فنيّ" أفلم يكن من الحقّ التريث بإصدار حكم قاطع بالريادة له. فالإقرار بكون المقدمات تقليداً فنياً يعني الإقرار بشعر كثير كان قبل المهلهل، وليس من المستبعد أن تكون تلك المقدمات لقصائد "طويلة" قالها شعراء قبل المهلهل بكثير. ثم مالمقصود بـ "القصيدة الطويلة"؟! وما مفهوم الطول، أو القصر في القصيدة؟ وكيف يمكن أن نحدده تحديداً دقيقاً، يجعله صالحاً لاستخدامه في حكم دقيق كهذا؟! فثمّة اتفاق –أو ما يشبه الاتفاق– بين القدماء، على أنّ الأبيات إذا بلغت السبعة تسمى قصيدة، فما العدد الذي تكون به طويلة، لنعرف حدّ الطول وحدّ القِصر؟!.

والدهشة التي تثيرها جرأة الباحث، في حكمه السابق، لا تقلّ عن الدهشة التي تثيرها جرأته في أحكام أخرى؛ منها ذهابه إلى أنّ المهلهل: "كان أوّل من طوّل القصيدة الرثائية فجعلها ثلاثين بيتاً دون أن يخلّ ببنيتها ونسقها الشكلي والمعنوي..."[69]! وأنّه "أوّل من ربط موضوع الرثاء بأشعار الحماسة..."[70] فالباحث يطلق أحكامه بيقين، وكأنّه بناها على استقراء كامل للشعر الذي كان قبل المهلهل، فرأى أنّ القصائد الرثائية كانت أقلّ من ثلاثين بيتاً، ولم تبلغ الثلاثين إلاّ على يديه! وأنّها–فضلاً عن ذلك– لم تكن مستقيمة من حيث بنيتها ونسقها الشكلي والمعنوي، وأنّ موضوع الرثاء لم يربط بالحماسة إلاّ على يدي المهلهل، أيضاً. ولكن لما كان استقراء الشعر العربي قبل المهلهل أمراً أشبه بالمحال، لأسباب يطول ذكرها –من أهمها عدم التدوين– فإنّ هذه الأحكام وأمثالها تبدو غير ذات جدوى، في الوقوف على دور المهلهل في التجربة الشعرية العربية.

– البحث عن دليل ضائع:

على أية حال، ليس من السهل تحديد تاريخ تقريبي لبلوغ القصيدة العربية مرحلة النضج؛ فالغموض يلفّ أمراً كهذا من جوانبه جميعاً، حتى ليجرؤ المرء على القول: إنه لا يقلّ غموضاً عن الحديث عن بداية قول الشعر نفسه. ولا ريب في أنّ قدْراً من هذا الغموض يرجع إلى غياب نصوص شعرية يمكن الوثوق بها في إضاءة درب البدايات المظلمة[71]. غير أنّ قدْراً آخر يرجع إلى ما يكتنف تاريخ العرب القديم من غموض، وإلى عدم وضوح صورة العرب قبل الإسلام في أذهان الدارسين. وهي صورة أسهم في تكوينها الفهم الديني للجاهليّة بوصفها ظلاماً في مقابل نور الإسلام. ولأنها كذلك، لم يجد المتحدثون عنها أيّ حرج في نعتها بكلّ ما يليق بالظلام المعبّر عن الضلالة.

وعندما بدأ المستشرقون دراسة الأدب العربي لم يكن الوصول إلى الحقيقة غايتهم جميعاً، ولا غاية أكثرهم. بل كانت غاية الغالبية العظمى منهم مرتبطة بأهداف لا تمتّ إلى الحقيقة العلمية بسبب. وقد اجتهد هؤلاء في تشكيل صورة قاتمة للعرب، وللتاريخ العربي، وللشعر العربي. ولقد كان اجتهادهم في زمن كانت الأمة العربية فيه تمرّ بمرحلة من أقسى مراحل حياتها، ولذلك لم يكن الدارسون العرب قادرين على مناقشة أقوال المستشرقين، ومحاورتهم فيها. لقد بدت تلك الأقوال أشبه بالحقائق التي لا يعتريها الشكّ، ولاسيما أنّ قائليها من أصحاب المستويات العلمية الرفيعة،

([69])– قصيدة الرثاء: 69.

([70])– قصيدة الرثاء: 146.

([71])– أثبت الدكتور مقبل التّام عامر الأحمدي في كتابه "شعراء حمير أخبارهم وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام" (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط1، 2010): 2/398، وما بعدها، قصيدتين عُثِر عليهما منقوشتين على صِفاح الحجارة بالخط المسند، إحداهما يرّجح أنّها من بنات القرن الأول الميلادي، بلغت سبعة وعشرين بيتاً، وهذا يعني أنها لم تكن أولّ محاولة لقائلها. ولكن إلى أي حدّ يمكن الوثوق بكون لغة القصيدة هي عربيتنا القديمة؟.

والصيت الواسع. فضلاً عن أنهم ينتمون إلى بلدان قوية، يعدّ الحلم ببلوغ ما وصلت إليه من الرقيّ ضرباً من الخيال الجامح. وهذه أمور أسهمت بتبنيّ أقوالهم بيقين، والبناء عليها، كما تسهم اليوم بتبني النظريات النقدية الغربية والدفاع عنها، وفرضها على الدراسات النقدية للأدب العربي، بطريقة تبلغ أحياناً حدّ القسوة التي لا تعرف الرحمة.

وكان ممّا أسهم إسهاماً كبيراً في غياب نصوص شعرية يمكن أن تضيء دروب البحث في بدايات تشكّل القصيدة العربية، ومراحل نموّها، انصراف العرب القدماء عن الاهتمام بـ "التاريخي" إلى الاهتمام بـ "الفنّي"، فكان أن فقد "التاريخي" قيمته التي تسوّغ له البقاء. وأنا لا أعني بالقدماء في هذا المقام "قدماء النقاد"، بل أريد أبناء القبائل التي كان لشعرائها فضل السبق. ولا أستبعد أن يكون قد وقع بين أيدي هؤلاء من النصوص الشعرية ما كان يمكن أن يكون ذا فائدة عظيمة، ولكنهم–لأسباب مختلفة– أضافوا إليه ما أفقده قيمته التاريخيّة.

أما قدماء النقاد فقد انشغلوا بالقصيدة الناضجة، بل بالقصيدة التي تمثل النموذج الذي ارتضوه لها، وهو نموذج قصيدة المدح، أو لنقل– بأسف– قصيدة مدح التكسب، إذا أردنا الدّقة. ولم يكن التأريخ للشعر يعنيهم، أو هذا ما يبدو لنا – على الأقل– من أقولهم. فغاية ما نجده عندهم، مما ينتمي إلى التأريخ بسبب، هو تلك الإشارات المتناثرة إلى أوّل من فتح باباً لقول في غرض من أغراض الشعر، أو أوّل من رقّق الشعر، أو أوّل من قصّد القصيد،... وما شاكل ذلك، وهي إشارات لا تقدّم بين يديها دليل صحتها. ولا يفوتني أن أشير إلى دور رواة الشعر في كلّ ما نحن فيه من حيرة، فلقد كانت الرغبة في التفرّد والشهرة، إضافة إلى أسباب أخرى، كالعصبيّة القبلية، تدفع بالكثيرين منهم إلى المساس بالتراث الذي بين أيديهم، أو في ذاكراتهم، إذا ما أتيح لهم ذلك؛ وهو مساس قد يبلغ حدّ الإضافة، أو الحذف، أو نسبة بعض الأشعار إلى غير قائليها.

ولم يكن رواة الأخبار أكثر دقّة من رواة الشعر،إذا افترضنا تخصّصاً في الرواية، ولم يجد الذين نقلوا إلينا هذا التراث العظيم غضاضة في تدوين كثير ممّا وقعوا عليه من غير تدقيق، ولذلك قد نجد "...في الذي ذكروه وكتبوه تناقضاً محيّراً، وتنافراً عجيباً، يجعلك تشعر أنّ رواة تلك الأخبار لم يكونوا يملكون يومئذٍ أدوات النقد لصقل ما سمعوه من أفواه الرواة، وما نقلوه عمّن أدرك الجاهلية من أقوال، أو أنهم كانوا يعمدون إلى الوضع أحياناً لصنع أجوبة على أسئلة وجهّت إليهم في أمور لم يأتهم بها علم من قبل"[72].

وهذا كلّه يجعل من تقديم المهلهل بصفته "رائد القصيدة العربية"[73] أمراً فيه من التعجّل أكثر مما فيه من التأني الذي يتطلبه الحكم العلمي، إلاّ إذا فهمنا أنّ المراد تحديد أوّل شاعر يمكن الاطمئنان إلى نسبة قصيدة كاملة إليه. والقول بريادة المهلهل للقصيدة الطويلة يعني الإقرار بـ "حداثة" بناء القصيدة عند الجاهليين، ما يعني إقراراً بحداثة ظهور العرب على صفحة التاريخ بوصفهم أمّة متحضّرة، بمفهوم التحضّر الملائم لذلك الزمان. فهل من المعقول أنّ أوّل قصيدة عربية طويلة ولدت قبل إشراق نور الدعوة الإسلامية بأقلّ من مئة عام، في حين ولدت القصائد الطويلة عند الشعوب الأخرى بزمن طويل جدّاً قبل ذلك؟!.

إنّ ما نعرفه عن الجاهليين، على الرغم من كثرة ما نعرف–كما يتهيأ لنا– ليس بالقدر الذي يتيح لنا إطلاق أحكام دقيقة على أوليات الأشياء عندهم. فثمة جوانب كثيرة غامضة تقابل الجوانب الواضحة –أو التي نظن أنها واضحة– من تاريخهم. فقد "حفظت الكتابات العربية الجنوبية أسماء عدد كبير من القبائل، لم يعرف أسماء أكثرها أهل الأخبار...وبعضها كان قد هلك وانحلّ واختلط في القبائل الأخرى قبل الميلاد، وبعضها بعد الميلاد، وقبل الإسلام بأمد"[74]. ولا ريب في أنّ

([72])– المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام(د. جواد علي. منشورات الشريف الرضي، ط1، 1380): 14/6.

([73])– قصيدة الرثاء: 72.

([74])– المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: 313/4.

تلك القبائل كان لها تاريخها الذي حققت فيه شيئاً. وليس من الدقة العلمية أن نتجاهل ذلك كلّه، ونحن نبني أحكاماً تتعلّق بتاريخ العرب قبل الإسلام.

فتاريخ الجاهلية كتب بعد مئة عام من بدء الدعوة، وفي ظلال قناعة– أو ما يشبه القناعة– بأنه تاريخ مرحلة من مراحل الكفر والضلال، وليس من الحق إنفاق الوقت في سبيل تحقيقه وتدقيقه. ولم تكن الغاية من كتابته–في أكثر الأحيان– إلاّ جعله مدخلاً إلى التاريخ الإسلامي الذي انصرف إليه المؤرخون بعناية ما بعدها عناية.

فماذا نعرف مثلاً عن عاد وثمود، وعن أصحاب الكهف، وأصحاب الأخدود، وغير ذلك مما ذكره القرآن الكريم؟ وماذا نعرف عن "العرب البائدة"؟. ولا يغيب عن بالي، وأنا أتساءل، أنّ المؤرخين العرب قد قالوا شيئاً عن تلك الأقوام، ولكن لا يغيب عن بالي –أيضاً– أنهم قالوه على عجل، وفي مرحلة متأخرة، معتمدين في المقام الأول على الرواة؛ لأنّ المصادر التاريخية لم تكن بين أيديهم، ولم يكن البحث عنها يشغلهم إلى الحدّ الذي يدفعهم إلى تحمّل عنائه. وهكذا استندوا، في أكثر ما قالوه، على الإسرائيليات، فطغت الخرافة على الحقيقة في أحاديثهم، فزادوا المسألة غموضاً.

وحتى الأنساب التي حظيت عند العرب باهتمام عظيم، لم تفلت من العيوب التي تطالعنا في الروايات التاريخية؛ فعندما حاول المؤرخون كتابة أنساب العرب "اعتمدوا إلى حدّ كبير على سلسلة الأنساب في التوراة، ومن ثم فقد رفعوا من نسل قحطان، فهم العرب العاربة، ونزلوا بنسب بني إسماعيل، فهم العرب المستعربة، أحدث نسباً من غيرهم من القبائل البائدة والعاربة في نظر كتّاب الجنوب...وهكذا كان الكتّاب المسلمون مروّجين لنظرية التوراة في الأنساب، وجهلوا–أو تجاهلوا– أنّ التوراة إنما كتبت ذلك لترفع من شأن بني إسحاق على بني إسماعيل، ولتجعل منهم دون غيرهم الأمة المختارة..."[75].

وما اتفق على تسميته بـ"الجاهلية" مرحلة حديثة في تاريخ العرب القديم الذي "يبدأ منذ عصور ما قبل التاريخ، وينتهي في بداية القرن السابع الميلادي"[76]. فلفظة "عرب"(عرابة Arabaya) تظهر في القرن السادس قبل الميلاد "في النصوص الفارسية المكتوبة باللغة الإخمينية(أو الأكمينية) وذلك في نقش انتصارات الملك دارا الأول(522–486ق.م) المعروف باسم نقش بهستون"[77]. "وفي آخريات القرن السادس قبل الميلاد، بدأ اليونان يتحدثون عن العرب في كتاباتهم"[78].

وإذا تركنا تلك الأزمنة البعيدة، وانتقلنا إلى زمن قريب من الزمن الذي نعتقد بصحة نسبة بعض الشعر إليه، أي: إلى بداية القرن الرابع الميلادي، نجد أنّ امرأ القيس قد تمكّن "من تثبيت سلطانه على قبائل أسد ونزار وسمى نفسه ملك جميع العرب"[79]، وهي تسمية تعكس إحساساً بوحدة الانتماء، وتشير إلى حالة متقدمة من التطور الحضاري. وكان يوم خَزَازَى[80] يوماً عظيماً من أيام العرب، بل قيل: إنّه "أعظم يوم التقته العرب في الجاهلية"[81]، وفيه استطاع كليب–أخو المهلهل– أن يجمع ربيعة ومضر وإياد تحت لواء واحد، وفيه توحّدت "كلمة العرب الشماليين،

([75])– دراسات في تاريخ العرب القديم((د. محمد بيومي مهران. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993): 158.

([76])– دراسات في تاريخ العرب القديم: 22.

([77])– دراسات في تاريخ العرب القديم: 145.

([78])– دراسات في تاريخ العرب القديم: 146.

([79])– تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي: (د. نبيه عاقل–المطبعة الجديدة، ط1، دمشق، 1976): 55.

([80])– خزازى: موضع، حول تحديده خلاف(انظر معجم البلدان، لياقوت الحموي. دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1984) : "خَزاز وخَزازى" 364/2، 365.

([81])– معجم البلدان: 366/2.

وكانت مظهراً من مظاهر الاتجاه الشعوري في أمة هاجتها الأحداث إلى طلب وحدة كبرى لمقاومة شرٍّ أحاط بها، واستجابة لوازع فطري إلى ردّ خطر ماحق، ومقاومة عدو، بطش بهم، وفرّقهم..."[82] وهذا أمر ما كان ليتحقق لولا وجود نشاط ثقافي–شعري في المقام الأول– يبشر به، ويدعو إليه، ثم يعبّر عنه، فيما بعد. فماذا نعرف عن ثقافة العرب في تلك المرحلة، وعن أشعارهم بشكل خاصّ؟ ماذا نعرف عن الشعر الذي خلّفته وقعة خزازى، مثلاً؟.

وإذا كان الغموض يلفّع أمراً كهذا، حتى الآن، أفليس من الحقّ أن نكون شديدي الحذر ونحن نسعى إلى تقرير أمور، أو إطلاق أحكام تتعلق بأوليّة الشعر العربي، بل والقصيدة العربية؟ ولاسيما أنّ ثمّة إشارة إلى شاعر كان له إبداع، وما زلنا نجهل أي شيء عنه، سوى اسمه وأنه بكى الديار، أعني الشاعر "ابن خِذام" الذي أشار إليه امرؤ القيس في شعره[83]. وهي إشارة تعني وجود شعراء آخرين غيره، فليس من المعقول أن يكون شاعراً وحيداً في عصره. ثم إن صاحب جمهرة أنساب العرب يذكر شاعراً اسمه عِلباء بن حارثة بن هلال[84]، وهو قاتل والد امرئ القيس، فماذا نعرف عنه وعن شعره؟ وحتى زهير بن جناب الكلبي، الذي بقي له شعر مذكور، لا نعرف عن شعره إلاّ أقلّ من القليل بالقياس إلى عمره، ومكانته، وحياته الملأى بالنشاط؛ فقد روي أنه عاش "مئتي سنة"، وأنه أوقع بالعرب "مئتي وقعة"– وقيل خمسمئة وقعة– "ولم يكن في العرب أنطق منه، ولا أوجه عند الملوك، وكان لشدّة رأيه يسمى كاهناً"[85]. ولا تعنينا حرفية الخبر –في هذا المقام– بل دلالاته؛ فرجل معمّر شاعر هذا شأنه، لا ريب في أنه قال شعراً أكثر بكثير من هذا الذي بقي له بين أيدينا، ونحن لا نعرف شيئاً عما ضاع من شعره!.

خاتمـة:

هذا الغموض الذي أشرنا إليه، يجعل الأقوال التي قد نواجهها في كتب التراث، والتي تحاول أن تحدد أوّل من قال الشعر، أو أوّل من قصّد القصيد، أو أول من بكى الديار، أو أبدع غرضاً من الأغراض الشعرية،... أو الأقوال التي تحدّد بمن بدئ الشعر، وبمن اختتم[86]، أو ما شابه ذلك، مجرّد وجهات نظر لا ترقى إلى مستوى المقولات النقدية التي يمكن البناء عليها.

إنّ الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا شعر ناضج من جوانبه جميعاً؛ شعر تجاوز مراحل التجريب التي تتشكل بها أوليّة الأمور المرتبطة به. فليس من منطق التطور الطبيعي أن يكون صاحب أول قصيدة طويلة ناضجة فنياً وصلت إلينا، هو أول من قصّد القصيد، وليس من منطق العلم أن نقرّ له بهذه "الأوليّة" ونحن لا نعرف–بوضوح– ما كان قبله، إضافة إلى أننا أشرنا إلى نصوص شعرية، بلغت القصيدة، قيلت في زمن المهلهل، أو قبل زمنه.

ثم كيف يكون المهلهل أوّل من قصّد القصائد، والمدّة الزمنية التي تفصل بين وفاته ووفيات شعراء آخرين مشهورين، كانت قصيرة جداً بالقياس إلى الزمن الذي تتطور فيه الفنون؛ فامرؤ القيس كان من معاصريه[87] فهل يعقل أن يكون المهلهل أول من قصّد القصائد، ثم يبدع امرؤ القيس معلقته المشهورة، وأشعاره التي تدلّ على أنّ الشعر

([82])– تاريخ الشعر العربي(د. محمد نجيب البهبيتي، تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري. دار الفكر، ط4، 1970) : 29.

([83])– انظر ديوانه(تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف، القاهرة، 1958): 114. وفي الحاشية: ويروى: ابن حِذام.

([84])– جمهرة أنساب العرب: 191. وهو ابن "الحارث" في الأغاني: 102/9.

([85])– المعمرون والوصايا: 35.

([86])– العمدة: 195/1

([87])– وفاة المهلهل سنة 530، ووفاة الفند الزماني سنة530، ووفاة امرئ القيس سنة 540، أو 550، ووفاة عبيد بن الأبرص سنة 545، أو 554.

العربي قد قطع شوطاً كبيراً في نموّه وتطوره؟. كذلك كان المرقشان الأكبر والأصغر من معاصريه[88]، وكذلك عمرو بن كلثوم الذي اجتمع معه على شراب[89]. فلا يعقل أن يكون المهلهل أول من قصّد القصائد، ثم نجد قصائد معاصريه قد بلغت هذا النضج الفني الذي أُعجب به القدماء والمحدثون على حدّ سواء.

ولست أريد أن اتّهم ابن سلام فيما ذهب إليه –فهو عالم جليل ثقة– بل أريد أن أذهب في فهم قولته مذهباً ينفي عنه التسرّع؛ إذ يحدّدها بالشعر الجاهلي الذي وصل إليه صحيح النسبة إلى أصحابه. وبهذا الفهم لابدّ من إعادة النظر في الأحكام التي بنيت على مقولة ابن سلام، والتي ذهبت إلى التسليم بريادة المهلهل للقصيدة الطويلة، أو للقصيدة المسبوقة بالمقدمة الطللية أو غير ذلك؛ إذ لا يمكن قبول مثل هذه الأحكام القاطعة، إلاّ بوصفها أحكاماً خاصة بما "بين أيدينا" من الشعر الجاهلي، وبذلك تصبح "الريادة" صفة "فضفاضة" إذا أضيفت إلى المهلهل!.

المراجع:

أ– الكتب:

– الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى. *المؤتلف والمختلف*. تحقيق عبد الستار أحمد فراج. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1961.

– ابن الأثير، ضياء الدين محمد بن محمد. *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*. قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي و بدوي طبانة. دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، بلا تاريخ.

– الأحمدي، مقبل التّام عامر. شعراء حمير، *أخبارهم وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام*. مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط1، 2010.

– الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن– *جمهرة اللغة*– دار صادر، بيروت، ط/بلا، تا/بلا.

– الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد. *تهذيب اللغة*. ج6 تحقيق عبد الله درويش ومحمد علي النجار. الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1964.

– الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين. *الأغاني*. شرحه وكتب هوامشه الأستاذ عبد.أعلي مهنا والأستاذ سمير جابر، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1992.

– الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب. الأصمعيات. تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون. دار المعارف، مصر، ط4، 1963.

– البصري، صدر الدين علي بن أحمد بن أبي الفرج بن الحسن. *الحماسة البصرية*، تحقيق وشرح ودراسة د. عادل سليمان جمال. مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1999.

– البغدادي، عبد القادر بن عمر البغدادي. *خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب*. قدم له ووضع هوامشه وفهارسه د. نبيل طريفي. دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998.

– البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأونبي. *سمط اللآلي في شرح أمالي القالي*. تحقيق وشرح د. محمد نبيل طريفي. دار صادر، بيروت، ط1، 2008.

([88])– انظر أمالي المرتضى: 257/2.

([89])– انظر ديوان النقائض: 260/2.

– البهبيتي، محمد نجيب. *تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري*. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، 1970.

– البيطار، محمد شفيق. *ديوان شعراء بني كلب بن وبرة*. دار صادر، بيروت، ط1، 2002.

– الجاحظ، عمرو بن بحر. *الحيوان*. تحقيق عبد السلام هارون. مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط2، 1357.

– جمعة، حسين. *قصيدة الرثاء جذور وأطوار، دراسة تحليلية في مراثي الجاهلية وصدر الإسلام*. دار النمير ودار معد، دمشق، ط1، 1998.

– ابن حبيب، أبو جعفر محمد. *المحبّر*. رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري. اعتنى بتصحيحه الدكتورة إيلزة ليختن شتيتر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، بلا تاريخ.

– ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد. *جمهرة أنساب العرب*. دار المعارف، مصر، ط3، 1971.

– ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي. *التذكرة الحمدونية*. تحقيق إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ط1، 1996.

– الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت. *معجم البلدان*. دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1984.

– ابن خلكان، أحمد بن محمد. *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*. تحقيق إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ط/بلا، تا/بلا.

– ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن:

أ– *الاشتقاق*. تحقيق وشرح عبد السلام هارون. دار الجيل، بيروت، ط1، 1991.

ب– *جمهرة اللغة*، حققه وقدم له الدكتور منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987.

– ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني. *العمدة في محاسن الشعر وآدابه*. تحقيق محمد قرقزان. دار المعرفة، بيروت، ط1، 1988.

– الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني الواسطي. *تاج العروس في جواهر القاموس*. دراسة وتحقيق علي شيري. دار الفكر، بيروت، ط/بلا، 1994.

– الزركلي، خير الدين. *الأعلام*. دار العلم للملايين، بيروت، ط9، 1990.

– السجستاني، أبو حاتم. *المعمرون والوصايا*. تحقيق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1961.

– ابن سلام، أبو عبد الله محمد الجمحي. *طبقات فحول الشعراء*. قرأه وشرحه محمود محمد شاكر. مطبعة المدني، القاهرة، 1974.

– السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين. *المزهر في علوم اللغة وأنواعها*. شرحه وضبطه وصححه محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي. مكتبة دار التراث، القاهرة، ط3، بلا تاريخ.

– عاقل، نبيه. *تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي*. المطبعة الجديدة، ط1، دمشق، 1976.

– ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمر أحمد بن محمد. *العقد الفريد*. حققه وشرحه وعرّف أعلامه د. محمد ألتونجي. دار صادر، بيروت، ط2، 2006.

– أبو عبيدة، معمر بن المثنى التميمي البصري. *ديوان النقائض، نقائض جرير والفرزدق*. دار صادر بيروت، ط1، 1998.

– العسكري، أبو هلال:

أ– *الأوائل*. تحقيق وضبط وتعليق د. محمد سيد الوكيل. دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، بيروت، ط1، 1987.

ب- *كتاب الصناعتين*. تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية، بيروت، 1988.

ج- *جمهرة الأمثال*. ضبطه وكتب هوامشه ونسّقه د. أحمد عبد السلام، خرّج أحاديثه محمد سعيد زغلول. دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988.

- علي، جواد. *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*. منشورات الشريف الرضي، ط1، 1380 هـ.

- ابن فارس، أبو الحسين أحمد. *الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب وكلامها*. تحقيق د. عمر فاروق الطباع. مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 1993.

- القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم. *الأمالي(ومعه ذيل الأمالي والنوادر)*. دار الكتاب العربي، بيروت، بلا تاريخ.

- ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم. *الشعر والشعراء*. تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر. دار المعارف، مصر، 1982.

- القلقشندي، أبو العباس أحمد. *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*. دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922.

- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. *التعازي والمراثي*. تحقيق محمد الديباجي. دار صادر، بيروت، ط2، 1992

- المرتضى، الشريف علي بن الحسين الموسوي العلوي. *أمالي المرتضى*. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1954.

- المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى:

أ-*الموشح*. تحقيق علي محمد البجاوي. دار نهضة مصر، مصر، بلا تاريخ.

ب- *معجم الشعراء*، تحقيق د. فاروق إسليم. دار صادر، بيروت، ط1، 2005

- المعري، أبو العلاء أحمد بن سليمان. *رسالة الغفران*. تحقيق بنت الشاطئ (د. عائشة عبد الرحمن). سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف المصرية، ط6، مصر الجديدة، 1977.

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. *لسان العرب*. دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.

- مهران، محمد بيومي. *دراسات في تاريخ العرب القديم*. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1993.

- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. *نهاية الأرب في فنون الأدب*. تحقيق مفيد قميحة وآخرين. دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.

- اليزيدي، محمد بن العباس. *المراثي، مراث وأشعار في غير ذلك وأخبار ولغة*. حققه محمد نبيل طريفي، منشورات وزارة الثقافة بدمشق، ط1، 1991.

ب- الدواوين الشعرية:

1- امرئ القيس، ديوانه. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف، القاهرة، ط5، 1958.

-وشرح ديوان امرئ القيس ومعه أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام. حسن السندوبي. المكتبة الثقافية، بيروت، ط7، .1982

2- الفرزدق، ديوانه. شرحه علي خريس. منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 1996 .

3- المهلهل، ديوانه. شرح وتحقيق أنطوان محسن القوال. دار الجيل، بيروت، ط1، 1995.